بين فن التاريخ وفن الحرب

٨ ـ خالد بن الوليد*

فى حروب الردة

للفريق طه باشا الهاشمى

رئيس أركان الجيش العراق

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى بدنى شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت البعير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

والغريب فى ذلك أن الفرق كانت تعيش مستقلاً بعضها عن بعض ، وكانت تتقاتل بخلاف فرق القبائل الأخرى . ولعل الداعى الى ذلك أنها كانت حسيمة لا يمكن لرئيس واحد السيطرة عليها ، وأنها فى بلاد جعلتها بمأمن من غزوات القبائل الأخرى فلم تر الفرق والبطون حاجة الى الوحدة

ويظهر أن مالك بن نويرة استطاع أن يستميل سجاحاً الى جانبه لقرابتها منه ، وأراد أن يستغلها لمصلحته فيضرب بها الفرق المخالفة له ورأس بنى تميم بالقوة ، أما هى فكانت تريد أن تستفيد منه للهجوم على المدينة . ومال وكيع بن مالك رئيس بنى حنظلة الى جانبه . وهكذا مالت شعب بنى مالك الى جانب سجاح

وكانت الشحناء قبل ذلك شديدة بين رؤساء بنى تميم كما نعلم . ولما ورد خبر وفاة الرسول عليهم أرسل بعضهم الصدقات الى المدينة ، وانتظر بعضهم ما يصنع البعض الآخر . ويروى أن قيس بن عاصم رئيس مقاعس والبطون قال « واويلنا من ابن العكلية — يريد به الزبرقان — والله لقد مزقنى فما أدرى ما أصنع ، لئن أنا تابعت أبا بكر وأتيته بالصدقة لينحرنها فى بنى سعد فيسودنى فيهم ، ولئن نحرتها فى بنى سعد ليأتين بها أبا بكر فيسودنى عنده » فعزم قيس على توزيع الصدقات على مقاعس والبطون ففعل ، وعزم الزبرقان على الوفاء بارسال الصدقات الى المدينة .

وكانت النتيجة أن نشب القتال بين عوف والأبناء من جهة والبطون من جهة أخرى ، وبين الرباب من جهة ومقاعس من جهة أخرى . وبين خضم وحنظلة وبين بهدى ويربوع

ولما وصلت سجاح الى الحزن أرض بنى يربوع واتفقت مع مالك ابن نويرة والتحق بهما وكيع بن مالك شرع مالك ينفذ خطته فيرأس بنى تميم ، فبدأ بقتال الرباب وعوف والأبناء ، فلم يظفر بهم بل دارت الدائرة عليه وعلى سجاح ، فوقع وكيع أسيراً بيد الرباب . وأرادت سجاح أن تجرب حظها مع بهدى وخضم من شعب بنى عمر فكان نصيبها الخيبة أيضاً . فلما لم تظفر بطائل تركت مالكاً وانسحبت برجالها من بلاد بنى تميم وسارت الى اليمامة

هذا هو الموقف حين كان خالد يجول ويصول فى بلاد بنى أسد ولم يكن يجهله ، لذلك لم يكد ينتهى من أمر بنى أسد حتى تراه قد انتهز الفرصة وأمر جيشه بالمسير الى أرض بنى تميم دون أن ينتظر أمراً من الخليفة ، وهكذا نراه يستعمل إبداعه ويسير جيشه نحو البطاح رغم مخالفة الأنصار له مدعين أن عهد الخليفة اليهم أن يقيموا بعد فراغهم من بزاخة إلى أن يكتب اليهم . إلا ان خالداً تقدم نحو البطاح قائلاً لهم إنه هو الأمير واليه تنتهى الأخبار وإن لم يأته أمر من الخليفة ، فانه لا يريد أن يضيع الفرصة مادام مالك بن نويرة بحياله . وشعب بنى تميم نافرة منه . لذلك لم يتردد خالد فى الذهاب اليه من دون الأنصار

والواقع أن مالك بن نويرة بقى وحيداً بين بنى تميم ، لأن صفوان بن صفوان كان قد أرسل الصدقات الى المدينة وكذلك الزبرقان ، أما قيس بن عاصم فكان عليه ، وكذلك وكيع بن مالك لما سمع بانتصارات خالد أرسل صدقات بنى حنظلة اليه . فبقى مالك حائراً ماذا يعمل ، وكان بالبطاح مع رجاله من بنى يربوع ، والبطاح أرض دون الحزن ، وهى ذات مراتع خصبة وفيها مياه كثيرة ، فالقصيبة والبريدة من مواقعها

وندم الأنصار على تخلفهم لأنهم خشوا أن تصيب المسلمين مصيبة فيلاموا عليها ، فأوفدوا رسولاً إلى خالد يطلبون منه الاقامة إلى أن يلحقوا به ، فأقام خالد حتى لحقوا به فسار الى البطاح . والروايات غير متفقة فى أمر مالك بن نويرة . ومن الروايات ما تزعم أن مالكاً قاتل المسلمين برجاله من بنى يربوع فقتل فى القتال .

(*) وهو بحث فنى قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كاتبه الفاضل « الرسالة »

ومنها ما يزعم أنه لما تأكد من الخيبة فرق رجاله وأمرهم بألا يقاتلوا المسلمين ورجع الى منزله ، ولما قدم خالد البطاح بث أربع سرايا الى جهات مختلفة ، فرجعت السرية التى كان يقودها أبو قتادة الأنصارى بمالك والبعض من رجاله

ومن الروايات ما تزعم أن مالكاً حارب السرايا التى أوفدها خالد فقتل ، ومنها ما تزعم أنه وقع أسيراً فى القتال فأمر خالد بضرب رقبته مع الأسرى الآخرين ، والبعض الآخر من الروايات تذكر أن خالداً أراد قتل الأسرى بما فيهم مالك ، إلا أن أبا قتادة شهد أنهم أذنوا وقاموا وصلوا ، فلما اختلفوا فيهم أمر خالد أن يحبسوا ، وكانت الليلة شديدة البرد ، فأمر خالد منادياً فنادى أن أدفئوا أسراكم ، وكانت كلمة الدفء فى لغة كنانة تعنى القتل ، فقتلهم الخفراء وقتل ضرار بن الأزور مالكاً

وكان قتل مالك على هذه الصورة ، وتزوج خالد بامرأته ليلى بعد قتله بمدة قصيرة . وهذا مما جعل عمر ينقم على خالد فطلب من أبى بكر أن يعاقبه على فعلته هذه ، فاضطر الخليفة الى استقدام خالد الى المدينة وطلب الايضاحات منه ، فلما اقتنع أن خالداً لم يقصد قتل مالك أعاده الى جيش المسلمين وكلفه بالسير الى اليمامة ليقاتل مسيلمة الكذاب

الحركات فى اليمامة

من الصعب التثبت من المدة التى قضاها خالد بن الوليد فى البطاح حتى نعلم الوقت الذى تقدم بجيشه نحو اليمامة لمقاتلة بنى حنيفة . فيكاد أكثر المؤرخين من العرب يتفق على أن القتال فى اليمامة وقع فى أوائل السنة الثانية عشرة الهجرية . أما أبو بشر الدولابى واليعقوبى فيزعمان أن القتال وقع فى شهر ربيع الأول من السنة المذكورة .

فمبدأ السنة الثانية عشرة الهجرية يوافق شهر آذار « ابريل » سنة ٦٣٣ ميلادية . والذى نعلمه أن خالداً توجه من ذى القصة نحو بزاخة فى منتصف شهر ايلول « سبتمبر » أو شهر تشرين الأول « اكتوبر »

وقضى خالد فى حركته نحو بزاخة أكثر من عشرين يوماً يترقب أخبار طيئ . وبعد انتصاره على جيش طليحة بن خويلد مكث فى بنى أسد مدة غير قصيرة ليقبل إسلام المرتدين ويجمع منهم السلاح . أضف الى ذلك قتاله فى ظفر ، وانتظاره مجىء رؤساء بنى عامر

ويدعى المؤرخون أن مالكاً بن نويرة قتل خطأ فى ليلة شديدة البرد . وعلى ما فى كتاب الطبرى رواية عن سيف ابن عمر أن الأسرى من بنى يربوع حبسوا فى ليلة باردة لا يقوم لها شىء . والليالى الشديدة البرد فى البادية تقع فى أشد شهرى الشتاء برداً وهما كانون الأول « ديسمبر » وكانون الثانى « يناير » . إذن وقع القتل بين أواخر كانون الأول وأوائل كانون الثانى ، فتكون حادثة البعوضة (*) وقعت بين شهرى شوال وذى القعدة فى السنة الحادية عشرة الهجرية

يقيناً أن خالداً قضى مدة غير قصيرة فى البطاح ، وقضى وقتاً فى ذهابه الى المدينة ملبياً دعوة الخليفة . ولما عاد منها لم يحرك جيشه نحو اليمامة بمجرد وصوله الى المعسكر ، بل انتظر مدة لورود النجدة التى أمد بها الخليفة جيش المسلمين . فيظهر من كل ذلك أن الحركة من البطاح نحو اليمامة وقعت فى أوائل السنة الثانية عشرة الهجرية — أى فى ربيع سنة ٦٣٣ ميلادية ، فى شهر آذار أو شهر نيسان « مايو »

ومن رواية رواها أبو هريرة تستدل على أن سلمة بن عمير الحنفى كان يشجع بنى حنيفة على المقاومة بعد معركة عقرباء فينادى قائلاً : « يا بنى حنيفة قاتلوا عن أحسابكم ولا تصالحوا على شىء ، فان الحصن حصين وقد حضر الشتاء » . ومعنى ذلك أن الحركات فى اليمامة جرت فى صيف الثالثة عشرة الهجرية — أى بدأت حوالى شهر مايو لسنة ٦٣٣ ميلادية

منطقة الحركات

اليمامة مؤلفة من مقاطعتى العارض والخرج الحاليتين ، ومقاطعة الخرج من أخصب مقاطعات نجد ، فالماء مبذول فيها وهو على عمق بضعة مترات تحت الأرض . ولما كانت أرضاً منخفضة تنصرف اليها مياه الأمطار من الجبال والهضاب التى تحيط بها ، ومدينة اليمامة — العاصمة القديمة — واقعة فيها

ويدعى كثير من الجغرافيين بأن أرض اليمامة القديمة هى مقاطعة الخرج الحالية . وهذه المقاطعة واقعة فى جنوب شرق

* البعوضة اسم المحل الذى قتل فيه مالك بن نويرة

العارض ، ويحدها من الشرق وادى حنيفة ، وعلى إحدى شعبه اليمنى بنيت مدينة اليمامة . ولا تزال مقاطعة الخرج من أكثر القاطعات النجدية نفوساً ، وفيها مراع خصبة وبساتين نخل كثيرة

ويحد المنطقة التى جرت فيها الحركات من الشرق هضبة العرمة ، وهى الهضبة المرتفعة المشرفة على الدهناء ، ومن الغرب الأنفدة الموازية لسلسلة طويق ، ومن الشمال مقاطعة القصيم . والمنطقة جبلية تعد من أوعر مناطق نجد من حيث الوديان والمضايق والروابى والآكام

وتمتد جبال طويق فى وسط المنطقة من الشمال الى الجنوب وهى حجرية كلسية جرداء متموجة ، تتألف من سلسلتين متوازيتين ، وسفوحها الغربية منحدرة ، أما سفوحها الشرقية فقليلة الانحدار . ويبلغ ارتفاعها زهاء ستمائة قدم على الهضبة الغربية . وتمتد الجبال من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى ، وتنكسر فى الوسط وتغير اتجاهها الى الجنوب فالجنوب الغربى فتنتهى الى وادى الدواسر . وفى المحل الذى تنكسر فيه تجرى الوديان من الشرق الى الغرب وتصب فى وادى حنيفة . وهذه الوديان ضيقة وعرة فى محل الانكسار حيث ترتفع سفوحها الشمالية والجنوبية بانحدار شديد

وتنصرف مياه الأمطار التى تهطل على الجبال الى الشرق والغرب فى الوديان والشعب ؛ فمنها ما يصب فى وادى حنيفة ، ومنها ما يكوّن وادى الخفس وشعيب العتشى حيث تنصرف مياهها الى الدهناء . ومنها ما يصب فى مقاطعة الوشم ويسقى منخفضاتها ويكوّن واحاتها الخصبة . والشعيب الذى يكوّن وادى الخفس ينبع من جنوبى نادق ويجرى نحو الجنوب الى الحريملة ومنها يتوجه شرقاً . وهذا الشعيب ووادى حنيفة يقسمان الجبال الى سلسلتين : الغربية منهما مرتفعة ووعرة وهى طويق ، أما الشرقية فمنخفضة ولطيفة الانحدار ، وهى روابى العارض فى الشمال وجبل صلبوخ فى الوسط والجبيل فى الجنوب . وأما وادى حنيفة (وهو أعظم واد فى هذه المنطقة) فقد سميت القبائل الساكنة على جانبيه باسمه . وصدره فى الأرض الفاصلة بين العارض من جهة ، والحمل والسدير من جهة أخرى . ويبدأ الوادى فى ثنية اليمامة فى شرق خشم الحيسية ، ويتكون من عدة شعب تجرى من الشمال الى الجنوب ومن الجنوب الى الشمال . فيستمد الوادى ماءه منها فيجرى من الغرب الى الشرق . وفى جوار عقرباء ، حيث نشبت المعركة الفاصلة بين جيش خالد وجيش مسيلمة ، يغير الوادى اتجاهه فيجرى من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى فى واد يضيق فى بعض المحلات ويعرض فى البعض الآخر ، وهو شديد الوعورة فى الشمال وسهل المجرى فى الجنوب . وعلى حافتى الوادى شيدت القرى والمدائن ، حيث استقيت المياه المنصرفة اليه ، وزرعت البساتين حولها . والوادى فى هذا القسم يتغذى بعدة شعاب ينصب أكثرها فيه من السفوح الغربية

وفى محل انكسار سلسلة طويق تصب فيه عدة وديان بحيث أنها تغير اتجاهه فى جوار السليمية واليمامة ، فيتوجه نحو الشرق فالجنوب الشرقى الى أن ينتهى فى رمال الربع الخالى

وكان من وصايا أبى بكر الى خالد بن الوليد أن يأخذ الحيطة عند الهجوم على أهل اليمامة . وكان الخليفة محقاً فى هذه الوصية ، لأن أهل اليمامة سكان القرى المبنية فى الوديان الضيقة ، وعلى سفوح الجبال الوعرة ، بنوا دورهم بالحجارة ، وسوروا قراهم بالجدران ، وأنشأوا الحدائق بالقرب من قراهم ، وزرعوا فيها النخيل والأشجار وأحاطوها بالحجارة ليمنعوا المارة من دخولها أو ليعتصموا بها عند الحاجة

فأهل اليمامة إذن لا يشبهون أهل البادية فى القتال ، فهم معتصمون بجبالهم المنيعة ، ومعتزون بقراهم المتينة ، وحدائقهم المستحكمة . ولا تزال آثار هذه القرى ظاهرة فى تلك الأنحاء . وهذه القرى كثيرة ومنتشرة على طوار وادى حنيفة ، وفى مقاطعة الخرج ، وفى الوديان والمنخفضات والواحات

« يتبع » طه الهاشمى

يظهر قريباً

بيرون

الانسان بين لذة الجسم وألم الروح

الشاعر بين تقديس الحرية وعبادة الطبيعة

بقلم نظمى خليل

بكالوريوس فى الأدب الانجليزى